المرجعيات الثقافية في رواية الخيميائي لباولو كويلو

ا.م.د.محمد انور اسماعيل جاسم
الجامعة المستنصرية– كلية التربية الاساسية
قسم اللغة العربية
mu197833@gmail.com

Cultural references in the novel The Alchemist by Paulo Coelho

Assit Prof: Mohammed Anwer Ismael (P.hD.)
Mustansiriyah University College of Bbasic Education
The department of Arabic language

المستخلص

تسعى الدراسة الى مقاربة مفهوم المرجعيات الثقافية في رواية الخيميائي للكاتب البرازيلي باولو كويلو، إذ حاولنا تتبع أهم المرجعيات الثقافية في روايته التي غذت النص الروائي بشكل متناسق مع الحدث وحوار الشخصيات مع بعضها ، ومن أهمها المرجعية الثقافية الدينية والأدبية والفلسفية ، وجاءت الدراسة بتوطئة لمفهوم المرجعيات الثقافية عند الباحثين والدارسين ، والوقوف على قراءة بسيطة لهذه الرواية واحداثها ووقائعها ، وخاتمة لأبرز النتائج ومنها : وجدنا مجموعة من المرجعيات الثقافية حاضرة بقوة في رواية الخيميائي ومنها الدينية من خلال ذكر بعض النصوص الدينية والاقتباسات من القرآن الكريم والتوارة وذكر بعض المظاهر الدينية ، وكذلك وجود المرجعيات الادبية والفلسفية وقد اعتمد عليها الكاتب في تشكيل بنيته الروائية ، لتشكل لنا نسقا بنائيا متكاملا ، فهي رواية فلسفية بأمتياز.

الكلمات المفتاحية : مرجعيات – ثقافية – الخيميائي – دينية – أدبية – فلسفية

Abstract

The study seeks to approach the concept of cultural references in the novel The Alchemist by the Brazilian writer Paulo Coelho. For researchers and scholars, and to stand on a simple reading of this novel, its events and facts, and a conclusion to the most prominent results, including: We found a group of cultural references strongly present in the novel The Alchemist, including the religious By mentioning some religious texts and quotations from the Holy Qur'an and the Torah, or mentioning some religious aspects, as well as the existence of literary and philosophical references, and the writer relied on them in forming his narrative structure, to form an integrated structural system for us, as it is a philosophical novel par excellence

Keywords: references - cultural - alchemist - religious - literary – philosophical

توطئة:

مفهوم المرجعية الثقافية

شهدت الدراسات الثقافية في الحقول الأدبية والمعرفية تطورا ملحوظا في العقود الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ومازالت مستمرة لوقتنا هذا ، فهذه الدراسات ارتبطت بشكل مباشر أو غير مباشر بمفهوم الثقافة بوجه عام وبالأدب بوجه خاص ، وإذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه الدراسات فعلينا أن نحدد المصطلح الذي ندرسه وهو المرجعيات الثقافية ، فالمرجع لغة من (رجع يرجع رجعا ورجوعا ورجعى ورجعانا ومرجعا ومرجعة : انصرف . وفي التنزيل : ((إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ)) أي الرجوع والمرجع ، مصدر على فعلى ، وفيه : ((إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا)) أي رجوعكم ..... وراجع الشيء ورجع إليه (عن ابن جني) ، ورجعته أرجعه رجعا ومرجعا ومرجعا ، وأرجعته .)) ١ ومن هذا المعنى اللغوي فالمرجع هو الانصراف والرجوع إلى الأصل أو تلك الخلفية التي يكتسبها الفرد من خلال القراءة والمعرفة الثقافية وبهذا سيحيلنا هذا المفهوم إلى تعريف المرجع في الاصطلاح فنقول إنها : الخلفية الثقافية التي يعتمد عليها المبدع في انتاج نصه سواء أكان نصا ادبيا أم غير ذلك ، أي هو الخزين المعرفي للمبدع ، او هو الخطاب الذي يحوي على كل المعارف والاشياء المستمدة من الواقع فقد تنصرف (دلالتها الى ما يحيل عليه الخطاب من اشياء ، وما ينقله من وقائع نقلا حرفيا أو غير حرفي يتدخل فيه الناقل متصرفا في مكونات البنية الواقعية ، وصابغا إياها بذاتيته المبدعة) ٢ كما يعرف أنه يعد موضوعا من (مواضيع العالم الحقيقي ، التي تشير إليها كلمات اللغة الحية ، ، تبدو كلمة موضوع غير كافية ،

ذلك ان المرجع يغطي الاوصاف والافعال والاحداث الحقيقية ، فضلا عن ذلك يبدو العالم الحقيقي محصورا ، لان المرجع يشمل على العالم الخيالي) ٣.

أما مفهوم الثقافة فهي كما عرفها (وليامز) في كتابه الثقافة والمجتمع بأنها (نظام دلالي يفضي حتما بالنظام الاجتماعي المعين إلى حتمية التبادل الاتصالي بين أفراده وحتمية إعادة انتاجه وحتمية معايشته وحتمية استكشافه)٤ فالثقافة بهذا المفهوم نظام دلالي خاص أي نظام اشاري يرتبط ارتباطا مباشرا بالمجتمع وهو ارتباط عضوي بالتعبير البايولوجي للكلمة ، ومايطرأ على المجتمع من تحولات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على المفاهيم الثقافية أو بمستوى تفكير المثقف والأديب ورؤيتهما للحياة وللواقع من حولهما ، ولذا صار من الصعوبة تحديد مفهوم معين للثقافة أو حصره بتعريف واحد ،لارتباطه بالمجتمع أو بسبب أن الثقافات متعددة ومتنوعة داخل المجتمعات وتختلف من بيئة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر، إذ اثبت هذا الأمر الناقد ادوارد سعيد في كتابه الاستشراق عندما بين أن مفاهيم الغرب مختلفة عن عما موجود في الشرق أي أن الثقافات بين الغرب والشرق مختلفة ، ولكل واحد منهم ايديولوجيته الخاصة به وتفكير خاص ٥.

وتأسيسا على هذا المبدأ فإن الثقافة أصبحت تتأرجح بين منظورين عند الباحثين والدارسين ، فهي قد تكون ذات صيرورة تدخل في مجال الفنون والانسانيات أي في الحياة النخبوية في دراسة اشكال الفنون الادبية وغير الادبية، و تدخل من منظور آخر في مجال دراسة العلوم الإنسانية والأجتماعية ٦، وعلى وفق هذا المفهوم والطرح أصبحت الثقافة متداخلة مع عوالم كثيرة منها فنية ، وأدبية وسياسية ، واجتماعية وحتى اقتصادية .

ومما سبق ذكره فإن مفهوم الثقافة يرتبط بالإنسان ، لكونه يمثل عملية ادراك ووعي بالأشياء والموجودات ، فهو الاطار الفكري المحيط بعقله سواء أكان شعوريا أم لاشعوريا ، فهو يتصرف وفق هذه العملية ، فالثقافة الإنسانية تمثل مجموعة (الخبرات والتجارب والتعامل بين الانسان ومحيطه وفق دائرة الذهن ، التصور ،الموضوع والمتراكمة خلال العصور والدهور هي مايمكن أن نسميه الثقافة الإنسانية .ومجموع تجارب وخبرات جماعة معينة والملخصة في كم من التصورات التمثلات والمفاهيم والقيم والأحكام (التي هي مفاهيم وتصورات بدورها) هي مايسمى ثقافة هذه الجماعة والاطار الذهني والفكري الذي تتحرك من خلاله وتتفاعل مع المحيط أو الموضوع بواسطته)٧.

وقد عدّ بعض الباحثين الثقافة نظاماً من العلامات، وهي نظام فرعي يتكون على وفق نمط مخصوص، فهي لا تنظم كل شيء، وإنما تصاغ على وفق نشاط ذي خاصيات مميزة، وعندها تكون الثقافة في مقابلة اللاثقافة بالضد، أي الطرف المقاوم له، عندها تصبح الثقافة على وفق هذه الضدية نظاماً من العلامات٨ ، ومن جانب آخر تمثل نظاما دلاليا عند وليامز كما ذكرناه آنفا ، وبناء على ماسبق ، فالثقافة نظام دلالي أو نظام من العلامات، وعندما نقول عنه أنه نظام، فهذا يعني مجموعة من أعراف واجبة تلتزم بها أجزاؤه، مثل النظام اللغوي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي٩ .

ومن جانب آخر فإن الثقافة ظاهرة مكتسبة ، أي ليست متوارثة او حالة بايولوجية بالفطرة ، وانما الفرد يكتسبها من افراد اسرته ومن بيئته كالقيم والاخلاق والعادات والتقاليد ، والمبادئ ، فهي مظاهر ثقافية موجودة عند المجتمعات بحسب تنوعاتها واختلافاتها ، واسلوب عيشها فتصبح بمرور الوقت متوارثة ، وقد

تتعرض الى عمليات تغيير وتحول في بنائها وفي مفاهيمها مثلما تتعرض المجتمعات الى تحولات معينة عبر الزمن ، لذا فالثقافة (تشمل على أساليب التفكير والشعور والسلوك التي يعبر عنها الناس في مجتمع معين عن طريق عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم والقوانين التي أقروها في طريق حياتهم، تشتمل في نفس الوقت على القيم والمثل العليا والتطورات المجردة)١٠.

ويعرف كونراد فيليب كوتاك الثقافة مؤكداً على جانب التعلم في اكتساب الثقافة. فهي (تضم سلوكاً محكوماً بالقواعد ومشاركاً، ويقوم على الرمز ويتم تعلمه وكذلك معتقدات يتم نقلها عبر الحضارات. فكل شخص يتم تهذيبه ليس فقط الأفراد الحاصلين على تعلم الصفوة ... وتشير الثقافات إلى المعتقدات والسلوكيات المعتادة وقواعد السلوك المستوعبة في البشر وذلك من خلال التعلم)١١ ، وتنتقل الثقافة من جيل لآخر داخل مجتمع معين، لكونها تمثل نظاماً معيناً من الأفكار، والمعتقدات، والقيم والعادات، وهذه المظاهر تنتقل عن طريق التربية والتعليم، فهي كما قلنا ليست ميراثاً بل حالة مكتسبة فهي تمثل (مجموعة ما يحصل عليه الفرد من مجتمعه ويتمثل ذلك في المعتقدات والتقاليد والنماذج الفنية والعادات المتعلقة بأنماط السلوك المختلفة والتي تصل إليه لا عن طريق فعالياته الابداعية بل كميراث من الماضي ينقل إليه بالتعليم العضوي المنظم)١٢ ، فسلوك الفرد داخل مجتمعه أو خارجه يعبر عن ثقافة ذلك المجتمع، فالسلوك الإنساني هو ترجمة عملية للفعاليات الذهنية التي تنبثق عن ثقافة ما، ثم تعبر عن رؤية للعالم ١٣.

وقد عُرّفت الثقافة بتعريفات متعددة، وهي متباينة بحسب طبيعة الموضوع الذي تدرس فيه الثقافة، فقد عرفها كلهون بأنها (وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الانسان عبر التاريخ، الظاهر فيها والمتضمن، العقلي واللاعقلي التي توجد في

وقت معين، والتي ترشد وتوجه الافراد في المجتمع) ١٤ ، وهنا تكون الثقافة وسيلة من الوسائل المعرفة المرتبطة بزمن معين، وتأخذ دور التوجيه للسلوك الإنساني، ويعرفها ادوارد تايلور بصورة شاملة، وتأخذ مساحة واسعة فهي ذلك (الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أو عادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع)١٥،

أما كيسنج فيفهم الثقافة بأنها قائمة على التقاليد والسلوك وأنها تنتقل عن طريق التعليم، فالثقافة (تتركز على تقاليد الناس. أما المجتمع فيركز على السكان الذين يمارسون هذه التقاليد. أما الثقافة فتعني السلوك المتعلم ذلك لأن السلوك لا ينتقل بالطريقة الوراثية أو الغريزية، وإنما بطريقة اجتماعية، وهي تعني أيضاً السلوك المشترك لأنها بواسطة كل الناس في المجتمع)١٦، وعند ريتشارد هوغارت (تعني أسلوباً كلياً لحياة المجتمع، معتقداته، ومواقفه، ومزاجه، كما يظهر ذلك في أنواع شتى من البنى والطقوس والأفعال، وكذلك في الأشكال المتعارف عليها تقليدياً من الفنون) ١٧ ، ويرى المفكر الجزائري مالك بن نبي أن الثقافة تعني (مجموعة من الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته... فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر)١٨ ، ويرى تركي الحمد من هذا التعريف يتداخل مع مفهوم الايديولوجيا، ويؤكد أن مفاهيم مثل العقل والفكر والخطاب يدوران في فلك الثقافة١٩، ثم يُعرف الثقافة أنها حالة وسطى بين إدراك الإنسان لما حوله (مفاهيم)، وبين تغيير الإنسان لما حوله (قيم وأحكام) [٢٠]، ويرى ادونيس أن معنى الثقافة بمفهومها العام تعني العادات والتقاليد، والمعرفة المتراكمة عبر الأجيال،

ويؤكد أن المجتمع العربي تسوده مجموعة من الصراعات بين ثقافة السطح، وثقافة العمق، وكذلك بين ثقافة الاستهلاك مع ثقافة الابداع، وثقافة المتاجرة مع ثقافة المغامرة، فالأولى تجمع وتكدس، وتعد الأشياء لذاتها وبذاتها، والثانية تفجر وتغير، فالثقافة الاولى هي ثقافة الطبقات المسيطرة الحاكمة، بينما الأخرى تمثل ثقافة المغلوبين المحكومين[٢١]، وإجمالاً فالثقافة هي (الطرق التي يوجدها أي مجتمع لتسد حاجاته الرئيسية ولتقوم بتنظيم علاقاته الاجتماعية بمعنى آخر: هي تلك النماذج المختلفة التي يصب فيها الأفراد وسلوكهم وتصرفاتهم وهي تلك العلوم والمعارف التي يدركها الانسان ويكتشفها البشر، وهي تلك الأديان والعقائد التي يعتنقها بنو البشر... وهي كل أوجه النشاط الانساني التي جاءت نتيجة للاجتماع الإنساني أو بالأحرى هي: كل ما أسداه الانسان لبيئته)٢٢. ولذا فالثقافة هي عملية تفاعل الإنسان مع محيطه الاجتماعي أو الطبيعي بوساطة الوسيط، وهو (الذهن) أو العقل أو الفكر، وما تجسده هذه المصطلحات على مدى الزمان والمكان من مفاهيم وتصورات وقيم، وسلوك وأحكام، وبتراكمها تتولد الثقافة، فالانسان هنا هو الفاعل، والقادر على تكوين العالم وتمثله، أي بمعنى قادر على تغيير العالم وتحويله أو دمجه، وتأسيساً على هذا فالثقافة هي محصلة امتزاج الذات مع الموضوع، وهذا الامتزاج تتغير فيه الثقافة من جيل إلى آخر، ومن مكان إلى مكان آخر، فالسكون والثبات هي مفاهيم غير واردة في قاموس الثقافة، فيجب على الثقافة أن تتغير بتغير التاريخ، والمجتمع، وعند ثبات هذه المفاهيم فذلك يعني أن الثقافة في أي مجتمع تعاني من أزمة ٢٣.

ومن خلال تحديدنا لمفهومي المرجع والثقافة ، فإن المرجعيات الثقافية تعني كل الخلفيات والافكار والرؤى والنظريات التي تدخل تحت الخطاب الأدبي والذي

سيكشف لنا كل ماذكرناه من مفاهيم لكلا المصطلحين ، ليدخل في مضمون خطاب النص الأدبي الذي يمثل ايديولوجية الكاتب ، وأفكاره ونظرياته ورؤيته للعالم ليدخل في مسمى المرجع الثقافي والذي نعني به هنا (مجموع الخلفيات والأبعاد المعرفية والفكرية والثقافية التي ينطوي تحتها الخطاب الأدبي ، وعادة ماتكشف لنا هذه الخلفيات والابعاد عن ايديولوجيا وثقافة أمة من الأمم في العالم ، أو مجتمع من المجتمعات ، داخل القارة الواحدة ، تكشف عن عاداتهم ، وتقاليدهم ، لغتهم ، تفكيرهم) ٢٤، وهذه المرجعيات الثقافية تتنوع وتتعدد بحسب طبيعة الموضوع والظاهرة التي تعالجها ، وهي مبثوثة في فكر الكاتب ، ويعتمدها في انتاج النص الأدبي الذي يدخل في اطار الخطاب بشكل عام ، فهناك مرجع ثقافي تاريخي ونكتشفها من خلال الرموز أو الدلائل التي يشير اليها الكاتب صراحة أم رمزا داخل العمل الادبي فيذكر بعض الأسماء والأماكن والنصوص التاريخية ، أو الإشارة الى حقبة زمنية معينة ، وهناك مرجع ثقافي ديني وهي تشمل مايقتبسه الكاتب من نصوص دينية من القرآن الكريم أوالإنجيل والتوارة أو من الأحاديث النبوية أو الأقوال المنسوبة إلى شخصيات دينية سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية ، ويدخل تحت هذا المرجع مايدور حول الحوار بين الاديان وطبيعة كل دين ، أو بيان طبيعة دين معين من الأديان .

وهناك مرجع ثقافي أدبي وفلسفي وأسطوري وتكون حاضرة في النص الروائي ويوظفها الكاتب لخدمة أغراضه الروائية ويجب أن تكون ملائمة مع احداث الرواية ونسقها العام ، إذ نجده مثلا متأثرا بمذهب أدبي معين ، أو يتحدث عن حقبة زمنية في تاريخ الأدب ، ويظهر من خلال ذكر بعض النصوص الشعرية ، أو مقاطع لنصوص أدبية ، أو ذكر بعض القصص الأدبية المعروفة في الأدب ، وكذلك

متابعة الافكار والنظريات الفلسفية التي يتبناها الكاتب وينسبها لشخصياته الروائية ورؤيته للعالم وللحياة إذ نرى وجود أفكار لبعض الفلسفات مثل الفلسفة الوجودية ، والواقعية والمثالية ، والبراغماتية ، والوضعية المنطقية والماركسية وغيرها ، أما الاسطورية فنجدها من خلال الإشارة إلى الأحداث الأسطورية الغريبة التي تخرج عن المألوف والأمر الطبيعي كالإشاراة إلى أحداث أسطورية عند اليونان والاغريق والرومان .

وسوف نتابع بعض هذه المرجعيات في قراءتنا لرواية الخيميائي* لباولو كويلو **، إذ نجد في هذه الرواية مرجعيات ثقافية متعددة بين مرجعية أدبية ودينية وتاريخية وأسطورية وفلسفية ، لتمتزج مع النص الروائي لتشكل نسقا بنائيا متكاملا ، قائمة على علاقة ترابطية لا يمكن عزل الواحدة عن الأخرى ، إذ ينوع الكاتب من مرجعياته الثقافية بين الدينية من خلال تضمين النص الروائي بنصوص من الإنجيل والتوارة والقرآن مع الإشارة إلى بعض المضامين والفروض الدينية ، وكذلك نجد مرجعية اسطورية والحديث عن اسطورة نرسيس الواردة في الميثولوجيا الاغريقية ، وغيرها من المرجعيات كما سنرى .

الرواية:

تنقسم رواية الخيميائي الى قسمين رئيسين بدون وضع عنوان لهما إذ يعتمد الكاتب في الانتقال من قسم إلى آخر على الزمن الطبيعي للرواية، فالأحداث تبدأ من الزمن الحاضر، أي زمن الكتابة ويتقدم نحو المستقبل مع بعض الاسترجاعات القليلة بحسب الحاجة الفنية للنص الروائي ، إذ يتكون كل قسم من مقاطع متعددة لتشكل لنا صفحات الرواية البالغ عددها مئة وسبعة وثمانون صفحة من الحجم المتوسط .

كتبت الرواية بأسلوب رواية الأحداث فقد أستعمل فيها الكاتب الحوار بين الشخصيات مع أسلوب السرد المباشر بحسب حاجة البناء الفني أو السياق الروائي ، وكذلك أستعمل اسلوب عرض وجهات النظر على لسان الشخصيات التي تشير إلى بيان ايديولوجية الكاتب ونمط تفكيره ورؤيته للعالم .

تحكي الرواية عن قصة شاب اسباني يعمل راعيا اسمه سانتياغو، أراد ترك عمله في سبيل تحقيق حلمه بالسفر والترحال بين البلدان من أجل استكشاف أماكن جديدة والتعرف على أناس جدد ومعرفة الحياة جيدا ، ولكن هذا الحلم لم يكن ذو أهداف محددة ، ولكن الحلم الذي غير حياته عندما رأى في منامه حدثا غريبا إذ شاهد أهرامات مصر ، وذلك الكنز المدفون تحتها وظل هذا الحلم يراوده كثيرا حتى لجأ إلى امرأة عجوز تفسر الاحلام عندها تغيرت حياته بعدما اخبرته العجوز بضرورة الذهاب إلى الاهرامات في مصر للعثور على ذلك الكنز المدفون فقالت له: (لقد جئت تسألني عن الأحلام . إن الأحلام هي لغة الرب . عندما يتكلم الرب بلغة العالمين ، استطيع تفسير كلامه . ولكن عندما يتكلم بلغة روحك ، فليس هناك عندئذ ، احد سواك يستطيع الفهم .)٢٥ ، وبعد برهة قصيرة بدأ ذلك الراعي بسرد وقائع الحلم وذكر لها إن طفلا قاده إلى مكان في مصر عند الاهرامات وليرشده لمكان الكنز ، وهنا طلبت العجوز عشر قيمة الكنز إذا وجده الراعي في مقابل تفسيرها للحلم ، واقسم الراعي بذلك رغم عدم قناعته بكلامها ولكنه كان يريد إنهاء الأمر ٢٦ ، وبعدها التقى بشيخ اسمه ملكي صادق والملقب ب (ملك سالم)وهي شخصية عربية تعرف الكثير من الأسرار والأساطير، إذ عرض على الراعي أن يعطيه عشر قطيعه في مقابل تعليمه كيف يعثر على الكنز ، وأن يعلمه الاسطورة الشخصية وكيفية تحقيق تلك الاسطورة وهذا هو الدرس الأول في رحلة الشخصية

إلى الاهرامات ٢٧، وبعد تصديق الراعي بكلام الشيخ بدأ الراعي رحلته نحو مصر، فمر بالمغرب أولا وحدثت له أحداث تعلم منها الكثير، وعمل مع تاجر الأواني البلورية وكسب خبرات مهمة، ثم ترك العمل عنده بعد مدة وقرر مواصلة رحلته نحو مصر لتحقيق حلمه، وكان عليه اجتياز الصحراء الكبرى حتى يصل إلى الاهرامات وفي رحلته التقى بالعرافة الغجرية والرجل الانكليزي الذي كان يبحث عن ذلك الخيميائي الذي اكتشف فيما مضى حجر الفلاسفة واكسير الحياة وتعلم منه الكثير من الحكم ومبادئ الحياة اثناء رحلته في القافلة التي قطعت الصحراء بتجاه مصر واخيرا يلتقي بذلك الخيميائي ليتعلم منه امور كثيرة ويصل الى مصر ويرى الاهرامات ولكنه لم يعثر على الكنز ولكنه تعلم كيف يحقق اسطورته الشخصية وكيف يعرف روح العالم تلك القوة الايجابية الموجودة في أعماق القلب ، وكذلك تعلم بعض القضايا الفلسفية والحكم في رحلته هذه ، فهو لم يعثر على الكنز وإنما عثر على كنز حقيقي وهو تعلم الحياة جيدا ومعرفة الناس وأسلوب مخاطبتهم ، وهذه الرواية في الحقيقة هي مجموعة دروس في مجال التنمية البشرية ومجال تعلم الاعمال وكيفية التعامل مع الناس .

المرجعية الثقافية الدينية

ونقصد بها تلك النصوص الدينية التي يذكرها الكاتب في نصه الروائي ، والمقتبسة من القرآن الكريم أو من الإنجيل أو التوارة ، أو ذكر بعض الأقوال والأحاديث الدينية ، أو التلميح والإشارة إلى بعض القضايا والأحكام الدينية سواء أكانت إسلامية أم غير ذلك ، وهذا يدخل في مفهوم التناص الديني ونعني به : (تداخل نصوص دينية مختارة – عن طريق الاقتباس او التضمين من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الخطب أو الأخبار الدينية ...– مع النص الاصلي للرواية

بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق الروائي وتؤدي غرضا فكريا أو فنيا أو كليهما معا)٢٨ ،وهذا مانجده في رواية الخيميائي من توظيف الكاتب لنصوص دينية مقتبسة من الإنجيل والتوارة والقرآن الكريم وجاءت هذه النصوص ملائمة للحدث الروائي وخدمة للغرض الفني فيها ، وهذا دليل على مرجعية الكاتب الثقافية الدينية التي وظفها من خلال الحوار بين الشخصيات ليعطي دلالة لطبيعة الشخصية الروائية المتحاورة ،فكانت الرواية بمثابة اللقاء بين الغرب والشرق وما في هذا اللقاء من تنوعات واختلافات في طبائع وتفكير تلك الشخصيات فبطل الرواية شاب اسباني يبحث عن حلمه ، وهو يمثل في تفكيره المجتمع الغربي ، ويلتقي بشخصيات من الشرق من جنسيات عربية ،وكان اول لقاء مع شخصية ملكي صدقي (ملك سالم) الذي علمه بعض الأسرار(الأسطورة الشخصية) فهذا اللقاء يحمل دلالات رمزية حول لقاء الغرب والشرق ،أي التقاء الثقافات المختلفة والاستفادة منها ، وهنا نرى مرجعية الكاتب الثقافية وكيفية توظيفها لخدمة غرضه الفني ، إذ نرى اقتباس الكاتب لبعض النصوص الدينية والرواية تبدأ بالاساس بنص مقتبس من الانجيل وضعها الكاتب قبل القسم الأول من الرواية في الإشارة إلى اهمية المحبة بين الناس ، وأهمية العمل في حياة الانسان وهذين الغرضين تتحدث عنهما الرواية ، ويدخل كذلك في دوافع الكاتب وغايته في اظهار نصه الروائي ذو مرجعية ثقافية دينية إلى جانب مرجعيات أخرى حاضرة في الرواية كما سنرى ، والنص المقتبس الذي ذكره كالاتي : (وفيما هم سائرون دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها . وكانت لهذه اخت تدعى مريم التي جلست عند قدمي يسوع وكانت تسمع كلامه ، وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة، فوقفت وقالت يارب ، أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي . فقل لها أن تعينني فأجاب

يسوع وقال لها مرثا مرثا انت تهتمين وتضطربين لأجل امور كثيرة . ولكن الحاجة إلى واحد. فأختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها .)٢٩ هذا النص الذي اقتبسه الكاتب من الإنجيل هو المرجع الديني الذي اعتمده الكاتب في تقديمه للرواية ، وهو يدخل ضمن غايات الكاتب ودوافعه في اظهار نصه الروائي محملا بمرجعيات متعددة ، ويأتي هذا النص في ذكر قصة وردت في الانجيل اراد الكاتب من خلالها الاشارة الى اهمية محبة الانسان لاخيه الانسان ، التي لاتكتمل مالم نحب الله ، وكذلك اشارة الى اهمية العمل في حياة الانسان وبالاخص الاعمال الخيرية ، وتأتي هذه القصة في الحديث عن الاختين (مريم ومرثا) اللتين هما من اب واحد وهو المسيح ، وام واحدة هي الكنيسة ، اذ جلست مريم عند قدمي يسوع تسمع كلامه ، اي تخدمه وتقدم له المساعدة وتقضي حوائجه ، وهي في المقابل تتعلم منه الكثير وتستمع الى كلمات الله ، أما الأخت الأخرى (مرثا) فهي كذلك تخدم المسيح ، ولكنها لاتستمع الى كلمات الله ، فهي مرتبكة ولاتركز في عمل معين وانما كانت اعمالها كثيرة ، إذ قدمت احتجاج إلى الرب بأن اختها مريم تركتها وحدها في تقديم الخدمة ، وإنها انشغلت بذكر الله ونسيت عملها في خدمة المسيح ٣٠، ويبدو أن الكاتب قصد في إيراد هذا النص في الأشارة إلى أهمية العمل عند الإنسان وأن لا ينشغل بالعمل وينسى واجباته الدينية واتصاله بالرب مثلما فعلت مريم ، وكذلك يبدو لنا أن الكاتب أراد الأشارة الى طبيعة عمل بطل الرواية ، الذي كان راعيا ولكنه كان يدرس في مدرسة دينية إذ كان أبوه يخطط له أن يجعله كاهنا يخدم في الكنيسة، ولكن رغبات البطل كانت اكبر من هذا ، اذ كان يرغب في اكتشاف العالم والسفر بعيدا وهو هنا يمثل شخصية (مرثا) التي كانت تعمل وتخدم المسيح ، ولكنها لاتستمع لكلمات الرب ، فالبطل كان كادحا يعمل

وبالوقت نفسه يدرس في المدرسة الاكليريكية أي في مدرسة تابعة للكنيسة ، ولكنه تركها وانشغل بالعمل والحلم بالسفر (فحتى السادسة عشرة تردد الى مدرسة اكليريكية . وكان والداه يرغبان بأن يجعلا منه كاهنا ليغدو فخرا لذويه الريفيين البسطاء ، الذين يكدحون من اجل الطعام والماء ، مثل خرافه تماما . درس اللاتينية والاسبانية واللاهوت . ولكنه كان يحلم منذ نعومة اظفاره بأن يخبر الحياة ، وذلك شيء اكثر اهمية من معرفة الرب واثام البشر . وذات مساء ، حين ذهب لزيارة اسرته ، تسلح بالشجاعة ، وقال لوالده انه لن يصبح كاهنا ، بل يريد ان يسافر.)٣١.

ويحاول الكاتب الاشارة إلى بعض القضايا الدينية ،أو تحديد بعض الاماكن الدينية في إشارة منه لبيان الدين الذي تنتمي إليه هذه المجتمعات ، عندما ينتقل بطل الرواية من بلد الى اخر، ويدخل هذا في اطار التناص غير المباشر، وهو أن يذكر الكاتب أشياء ومظاهر أو أماكن تدل على الدين مثلما نجد في وصف الراوي لتلك الابراج الشهيرة التي يصعد إليها المؤذن عندما يرفع الصلاة ، فنرى أن صورة تلك البناية جاءت من وجهة نظر الراوي اي وجهة نظر الكاتب غير العربي او المسلم الذي قد لايعرف اسم تلك الابراج التي تسمى بالمآذن ، فهذه الصورة تشير الى مرجعية الكاتب الذهنية في اطارها الديني، فالابراج التي ذكرها هي أماكن لرفع الاذان عند المسلمين وهي إشارة لوجود الشخصية في بلاد المسلمين ، وكذلك مشاهدته لمنظر اقامة الصلاة في المسجد (بعد برهة ، صعد رجل الى تلك الابراج الشهيرة وبدأ يؤذن . ركع الموجودون في المكان ، جميعهم ، وراحوا يصلون . بعد ذلك ، مثل خلية نمل تعمل ، نزعوا الاكواخ الخشبية وغادروا)٣٢ فهذا هو المشهد الأول لبطل الرواية عندما جاء الى بلاد المسلمين ، فهو من اسبانيا ولم يكن قد

رأى هذه المشاهد من قبل ، وفي نص أخر يذكر الكاتب بعض التعليمات التي ذكرت في القران الكريم، ولكنه لايذكر النص الديني وأنما يشير اليه بالمعنى ، إذ يذكرها على لسان التاجر العربي المسلم صاحب محل بيع الأواني البلورية في مدينة سبتة المغربية ، التي تقع قبالة مضيق جبل طارق ، وكانت في السابق محتلة من قبل الاسبان فقد قصدها بطل الرواية كونها المحطة الأولى لرحلته إلى مصر ، فقد ذكر الكاتب على لسان التاجر بعض التعاليم الإسلامية كوجوب أطعام المساكين أو أي جائع وبدون أي مقابل مادي ، وجاء هذا الأمر بعدما عرض الراعي الاسباني على التاجر أن يقوم بتنظيف الأواني في مقابل أطعامه وسد رمقه ، وبعدما أنتهى من عمله قال له التاجر : (لم يكن من الضروري ان تنظف شيئا . ان القران يلزمنا بأطعام اي جائع .) ٣٣ ، وفي إشارة الى قوله تعالى : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً) ٣٤ وهذا يدل على مرجعية الكاتب الثقافية الدينية ومعرفته بتعاليم الاسلام على رغم أنه غير مسلم .

وفي موقف آخر لبطل الرواية وهو سانتياغو مع تاجر الاواني العربي المسلم والذي اضفى عليه الكاتب بعض الصفات الدينية التي نجدها عند المسلم الملتزم بتعاليم دينه ، إذ أشار الكاتب إلى أركان الاسلام وفرائضه الخمس التي يجب على المسلم العمل بهن ، وذلك في معرض حديث البطل مع شخصية التاجر حول مبدأوه الذي يعتمده في حياته وفي عمله وسماه ب(المبدأ الملائم) أو (حظ المبتدئ) ٣٥ ، وعندما سمع التاجر كلام البطل تحدث عن تلك الفرائض وأشار صراحة لها ، وهنا ندرك تماما مرجعية الكاتب ومعرفته بتعاليم الإسلام أي بروز مرجعية ثقافية دينية متمثلة بذكر مبادئ الاسلام لقصدية واضحة في سياق أحداث الرواية ، أي

يريد الكاتب بيان تعدد الثقافات والديانات بين شعوب الارض ووصول شخصية البطل وهو اسباني الجنسية إلى بلاد المسلمين ، وذكر بعض الاحداث والمواقف التي صادفته في رحلته الاسطورية الى الاهرامات في مصر ، يقول التاجر : (لقد املى علينا القرآن ، الذي انزل على النبي ، خمس فرائض علينا العمل بها طوال حياتنا . اهمها : الشهادة بأن لا اله الا الله ، وحده لاشريك له . أما الفرائض الأخرى فهي : تأدية الصلاة خمس مرات في اليوم ، وصيام شهر رمضان ، وايتاء الزكاة لمساعدة المحتاجين .)٣٦ وهنا عدد التاجر المسلم للراعي الاسباني أربع فرائض من أصل خمس ، وقد تسأل عن الفريضة الخامسة فقال له : (قلت لي، قبل يومين ، بأنني لم احلم قط بالسفر . بيد ان الفريضة الخامسة على كل مسلم ، صادق الايمان، ان يقوم ، في حياته ، برحلة واحدة على الاقل الى مكة المكرمة.)٣٧ هنا ربط الكاتب ذكر هذه المرجعية الثقافية الدينية مع حلم الشخصية في السفر والترحال في حديثهما حول السفر واكتشاف العالم البعيد ، فالبطل كان يحلم في السفر إلى أماكن جديدة ، أما شخصية التاجر فكان حلمه الوحيد السفر إلى مكة المكرمة لتأدية الفريضة الخامسة وهي الحج (انت تحلم بالغنم والاهرام ، لكنك تختلف عني ، لانك تريد تحقيق احلامك . اما انا ، فكل ما اريده هو ان احلم بمكة)٣٨ ويسترسل التاجر بذكر الاشياء التي يريد القيام بها في الحج مثل لمس الحجر الاسود و القيام بالدوارت السبع أي الطواف حول الكعبة ، وسماع الخطب الدينية وترديد الدعوات وغيرها ، وذكر هذه الامور من قبل الكاتب دلالة واضحة على معرفته بالطقوس الدينية للمسلمين في الحج.

إن تعدد مظاهر التناص الديني المباشر أو غير المباشر في الرواية الواحدة إنما هو دليل على تعدد المرجعيات الثقافية لديه ، ففي هذه الرواية نجد تعدد المرجعيات

الدينية بين ذكر النصوص الدينية من الإنجيل أو القرآن الكريم أو الإشارة إليها ، أو من التوراة فقد ذكر لنا ما ورد في التوارة حول الحديث عن الحجرين المقدسين الاوريم والتوميم ، واهميتهما في التنبؤ في الامور الغيبية عند الكهنة ، ولكنه لم يذكر لنا ذلك النص التوراتي وإنما أشار اليها فقط ٣٩ ، وفي موقف آخر يتجلى امامنا نصا دينيا يقتبسه الكاتب من القرآن الكريم يتحدث عن الرزق ، وكيف يقدر الله الارزاق للناس كلهم وما على الإنسان سوى العمل والاجتهاد لتحصيل هذا الرزق ، فذكر على لسان شخصية ذلك (الجمّال) صاحب القافلة الذي قاد مجموعة من المسافرين وعبروا الصحراء الكبرى باتجاه مصر ، إذ سرد للبطل أنه في السابق كان يعمل فلاحا وكانت له أرض قريبة من القاهرة ، وكانت أحواله جيدة ولكن في يوم من أيام السنة فاض نهر النيل واغرقت ارضه وتعرض لخسارة كبيرة ، وفقد كل شيء والتجأ إلى عمل آخر وهو قيادة القوافل وقطع الصحارى ، واختتم قصته بذكر اية قرأنية (ولكنني كنت اصغي إلى قوله تعالى : قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له .)٤٠، إن اقتباس الكاتب هذا النص لارتباطه بالحدث الذي يرويه الكاتب وعن فكرة الرواية عامة التي تتحدث في اجزاء منها عن العمل واهميته في حياة الانسان .

ومن المراجع الثقافية الدينية المهمة التي وردت في الرواية هو ذكر قصة سيدنا يوسف عليه السلام وحاول الكاتب ربط دلالة قصة النبي يوسف وماحصل له ابتداء من غدر إخوته له والقائه في البئر وذهابه إلى مصر وحتى تنصيبه ملكا عليها بعد معاناة كبيرة ، وهذه القصة هي قريبة لما حصل لبطل الرواية ، فهو غريب جاء من الغرب من بلاد الاسبان إلى الصحراء في الشرق عند العرب بسبب حلم كان يراوده دائما عن كنز مخبوء في اهرامات مصر ، وهذه الحالة هي مشابه لما

حصل لسيدنا يوسف عليه السلام الذي جاء غريبا على مصر وبسبب براعته في تفسير الاحلام اصبح مقربا من الحاكم وهو فرعون ملك مصر، ثم انقاذ البلاد من مجاعة كارثية ثم اصبح ملكا عليها ف (المرجعيات الدينية مصدر مهم من مصادر الالهام؛ فالكاتب يعزز من نتاجه الادبي باللجوء إلى هذه المرجعيات التي تنير النص بأضاءات مختلفة يستنير بها القارئ وتعطي للنص قوة وحجة)٤١، وجاءت هذه القصة في الرواية على لسان ذلك العجوز الذي كان جالسا في خيمة زعيم قبيلة في الصحراء بعد نقاش دار بينه وبين بطل الرواية حول انقاذ القبيلة من خطر الاعداء وهنا يربط الكاتب دلالة قصة سيدنا يوسف التي وردت في القرآن الكريم في سورة كاملة فيها تفاصيل كثيرة ، وكذلك وردت هذه القصة في كتب الديانات السابقة وفي النصوص التوراتية، ولكن بروايات فيها تشابه واختلاف في احداثها مع النص القرأني ٤٢ (ونحن نجد الروح التي كتبت بها القصة في التوراة مختلفة بصورة كبيرة عن الروح التي وردت بها في القرآن، فضلًا عن الاختلاف في الحقائق والمعلومات، مع أن القرآن يلتقي مع التوراة في هذه القصة ــ بخاصة ــ على نحو كبير، وذلك على العكس من كثير من قصص الأنبياء السابقين). ٤٣ إذن وجود قصة سيدنا يوسف ليس فقط في القرآن، وإنما في النصوص الدينية الاخرى عند الأديان السماوية غير الإسلام ، ولأن كاتب روايتنا كاتب غربي فقد اطلع على هذه النصوص في الكتب السماوية والمصادر التاريخية ولذا ضمنها في روايته وربط دلالتها مع دلالة بطل الرواية ، ويبدو أن الكاتب قد اعتمد على الرواية الإسلامية في ذكر هذه القصة ، وذلك لأنها ذكرت على لسان أحدى الشخصيات العربية المسلمة فمن، الطبيعي أن تذكر بحسب الرواية الاسلامية ، والرواية الاسلامية تختلف عن الرواية التوراتية في : (إن الروح الإيمانية،

والتربوية، والأخلاقية تتجلى في السرد القرآني، بينما تتجلى الروح التاريخية في السرد التوراتي، وقد اختلط السرد التوراتي بكثير من الخيال، وتأثر في الوقت نفسه بما كان من واقع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر) ٤٤ ، وهذه المرجعية الدينية اعطت للرواية بعدا تاريخيا مهما للرواية ، فهي من جانب ربطت حياة البطل ومصيره في الرواية مع دلالة حياة سيدنا يوسف وماحصل له في نهاية قصته من أحداث سعيدة ونهاية جميلة ،عندما أصبح ملكا عادلا والتقى بأبيه سيدنا يعقوب عليه السلام بعد غياب طويل ، ومن جانب اخر تدل على مرجعية الكاتب وثقافته الكبيرة ورؤيته للأحداث ، وجاءت هذه القصة في الرواية وعلى لسان العجوز على الشكل الآتي : (قبل الفي عام ، وفي بلاد نائية ، القي في بئر رجل بيع عبدا ، وكان يؤمن بالاحلام . اشتراه تجار من بلادنا وجاؤوا به الى مصر. ونعرف ، جميعنا ، ان من يؤمن بالاحلام ، يحسن ، ايضا ، تفسيرها ، ..... بفضل ما راود فرعون مصر من احلام تراءت فيها البقرات العجاف ، والبقرات السمان ، انقذ ذلك الفتى مصر من المجاعة . كان اسمه يوسف ، وكان مثلك ، ايضا ، غريبا ، وعمره يقارب عمرك تقريبا) ٤٥ .

المرجعية الثقافية الادبية

وتأتي هذه المرجعية من خلال تتبع بعض الأفكار او الرؤى التي يضمنها الكاتب في روايته ، أو ذكر بعض النصوص الأدبية سواء أكانت شعرا أم نثرا ، و ذكر بعض الاراء الأدبية والنقدية في ثنايا نصه الروائي ، وبيان مدى تأثره بمذهب أدبي معين أو تأيده لنظرية ادبية معينة ، اذ يجب أن تكون كل هذه منسجمة مع فكرة الرواية أو احداثها وتؤدي غرضا أدبيا معينا وأن لا تكون محشوة حشوا زائدا بين النصوص ، أي يجب أن تكون منسجمة مع السياق الروائي ومع أحداثها ٤٦ ، ولذا

يجب أن لا يأتي بشكل تام ، وانما تكون بشكل رموز واشارات حتى لا يفقد النص مساره ورؤيته الابداعية وشكله الجمالي .

وفي روايتنا نجد مجموعة من المرجعيات الأدبية التي اعتمدها الكاتب في تضمين نصه الروائي وكانت على شكل نصوص أدبية مأخوذة من مصادر ادبية معروفة ، والبعض الاخر كانت على شكل إشارات حول الثقافة الادبية التي كانت تتميز بها شخصياته ومستوى تعليمهم أو مستوى ثقافتهم الادبية التي يتميزون بها ، وقد بدأت الرواية بمقدمة ضمّن فيها حكاية أدبية عن أسطورة نرسيس أو نرجس التي ذكرت في كتاب اوسكار وايلد ، وهي أول مرجعية أدبية في الرواية وتدخل ايضا ضمن المرجعية الأسطورية كونها أسطورة أغريقيية قديمة مذكورة في الكتب الأدبية القديمة ، إذ تبدأ الرواية بمشهد عندما يمسك الخيميائي بكتاب كان بيد أحد ركاب تلك القافلة المتجهة إلى مصر، ويقوم بتصفح الكتاب ويبدأ بقراءة أسطورة نرسيس أي قراءة حكاية تلك الأسطورة ، أي نجد حكاية صغيرة بداخل الحكاية الكبيرة ، وهذه المقدمة تمثل الزمن السابق للأحداث إذ يستبق الكاتب هذا الحدث الذي سنجده بعد صفحات كثيرة ولكنه يذكرها كحدث أول لغاية معينة ، ويبدو أن الكاتب أراد ذكر شخصية الخيميائي في أول الرواية وبعدها سيرجع بالزمن إلى بداية رحلة البطل وقبل أن يلتقي بالخيميائي الذي يحمل معه أسرار الحياة وسر الأسطورة الشخصية التي يبحث عنها البطل أثناء رحلته ، وكأنه يريد أن يقول لنا: إن الخيميائي موجود وأن البطل سيعثر عليه أثناء رحلته وسيلتقي به ، إذن أعتمد الكاتب على نقل حكاية من كتاب أدبي ، وهذه مرجعية أدبية واضحة ذكرت في بداية الرواية ، و تدل من جانب آخر بأن نرسيس ذلك الشخص المعجب بنفسه والذي يحب ذاته لدرجة كبيرة فهو ابن اله النهر كفيسوس تقول الاسطورة ان النهر

احتضن كفيسوس بشراييه المائية المتعرجة حورية احدى المروج الخضراء اسمها ليريوبي فقذف بمياهها في جوفها ليخرج مولود اسمه نركسوس اي نرسيس فقد وهبت الالهة له جمالا رائعا لا يقاوم ٤٧ فكان هذا الفتى الجميل يذهب كل يوم الى البحيرة ليتأمل جمال وجهه في مياه البحيرة حتى سقط في يوم من الايام في البحيرة ومات غرقا وتقول الاسطورة : إن في مكان سقوطه نبتت زهرة سميت بأسم نرسيس أو نرجس ، ويذكر الكاتب أن مؤلف هذه الأسطورة يكمل الحدث او القصة على النحو الاتي : (إنه لدى موت نرسيس ، جاءت الاورياديات ، ربَّات الغابات ، الى ضفة البحيرة، ذات المياه العذبة ، ووجدتها قد تحوَّلت جرن دموع . سألت الاورياديات البحيرة :

– لِمْ تبكين ؟

– ابكي من أجلْ نرسيس.

– ان هذا لا يدهشنا اطلاقا . لطالما كنا نلاحقه في الغابات باستمرار . لقد كنت الوحيدة التي تستطيع مشاهدة جماله عن كثب . سألت البحيرة:

– وهل نرسيس كان جميلا ؟

فأجابتْ الاورياديات متعجبات :

من يستطيع معرفة ذلك اكثر منكِ . ألم يكن ينحني فوق ضفافكِ كل يوم ؟

سكتتْ البحيرة لحظة دون أن تقول شيئا . ثم اردفت:

أبكي من اجل نرسيس . ولكنني لم الأحظ ، قط ، إن نرسيس كان جميلا. أبكي من أجل نرسيس ، لأنني كنتُ في كل مرة ينحني فيها على ضفافي ، ارى انعكاس جمالي الخاص في عمق عينيه .

قال الخيميائي : يالها من حكاية رائعة)٤٨.

ومن المرجعيات الادبية التي نلمحها في الرواية اشارة الكاتب الى مستوى الثقافي الادبي لشخصيته اذ يوضح للقارئ ان شخصية الراعي او ذلك الفلاح بحسب تعبيره هي شخصية مثقفة وانه كان يرتاد المدارس الدينية برغبة والديه ولكنه تركها من اجل اكتشاف العالم والسفر الى الخارج ٤٩ ، هذه الاشارة لمستوى الثقافي للشخصية من قبل الكاتب لها دلالة وقصدية تظهر في الصفحات الأخرى من الرواية مع تطور الأحداث ووصول الشخصية الى مستويات عالية في التفكير وتغيير نظرته للعالم ورؤية الاشياء والأمور بمنظار آخر ، وذلك لانه اكتسب تجارب كثيرة وعرف اشياء لم يكن يعرفها في السابق ، هذه الرغبة كانت حاضرة في تلك اللحظة التي قرر فيها ترك المدرسة وعندما أفصح لأبيه رغبته بترك الدراسة واكتشاف العالم والسفر بعيدا عن اسبانيا ٥٠، وأشار الكاتب الى مستوى الثقافي الجيد لشخصيته الروائية من خلال قراءة البطل للكتب التي يعثر عليها أو التي تكون مهداة من شخصيات أخرى ، وفي هذا المقطع يبين هذا الأمر قائلا : (باشر قراءة الكتاب الذي زوده به الكاهن طريفا . إنه كتاب ضخم . ومنذ الصفحة الاولى ، طالعته جنازة .ثم هناك ، فوق ذلك ، اسماء الشخصيات المعقدة جدا ، فأذا اتيح له ، يوما ، ان يؤلف كتابا ، فسوف يعرف الشخصيات ، شخصية أثر آخرى ، لكي يجنب القراء مشقة حفظ اسمائهم جميعها ، دفعة واحدة)٥١، يبدو ان البطل لايقرأ فقط ، وانما يريد مستقبلا تأليف كتاب في موضوع معين او تأليف رواية ادبية بدليل انه سيذكر كل شخصياته الروائية ويعرف بهم ، لانه لاقى مشقة كبيرة في حفظ كل الشخصيات التي كان يقرأ عنها في ذلك الكتاب ، وهذا دليل على مرجعية الشخصية الادبية التي تسعى للتثقف وتنمية جوانبه الفكرية والأدبية .

المرجعية الثقافية الفلسفية :

وتأتي هذه المرجعية من خلال ذكر بعض الأفكار والنظريات التي يؤمن بها الكاتب أو تؤمن بها أحدى شخصياته الروائية داخل النص ، ويكون وجودها ضروري لتوضيح فكرة معينة أو لخدمة غرضه الروائي ، وهي تعني استناد الكاتب على بعض الأفكار والايديولوجيات في تضمين خطابه الروائي وهذه تصبح الخلفية التي يستند عليها إلى جانب مرجعيات أخرى كما ذكرناها سابقا ، فهذه المرجعيات (لاتأتي خالية الوفاض ، بل تاتي محملة بأيديولوجيا تفرض سلطتها على الخطاب وتوجهه)٥٢ ، وهي تعني بالمعنى الدقيق (تتبع الأفكار والايديولوجيات المتبناة من طرف المؤلف ، واخذ انتقاداته حول فلسفة ما ، مثل (الوجودية الملحدة ، والوجودية المؤمنة وغيرها) بالتحليل والدراسة وإظهار عيوبها من خلال ضرب الامثلة، سواء كانت هذه الامثلة من وحي خيال الكاتب، أو أمثلة من الواقع حدثت في زمن مضى، أو يترقب وقوعها في المستقبل ، وكل هذا من أجل النهوض بالوعي الذاتي، القومي والعالمي، أو تصحيح أفكار سائدة غيرت مجرى التفكير، والعديد من مسارات الحياة منذ ظهورها)٥٣، وتتجلى لنا في هذه الرواية مجموعة من الأفكار الفلسفية التي ضمنّها الكاتب في احداث روايته ومواقف الشخصيات من بعض القضايا التي تخص الحياة ووجود الإنسان فيها ، ويمكن أن نطلق وصفا مجازيا لطبيعة هذه الرواية ونقول انها رواية فلسفية بامتياز حاول الكاتب أن يوضح بعض الحقائق الإنسانية ، والأفكار والنظريات التنموية في مجال العمل ، وكذلك تأكيده على تحقيق البطل أسطورته الشخصية من خلال إيمانه بالعمل وتطوير الذات ، ورؤية العالم بواقعية وموضوعية بعيدا عن الأحلام ، وتظهر هذه الافكار الفلسفية في بداية الرواية عندما يلتقي البطل بشخصية ملكي

صادق أو ملك سالم ليفصح له عن تلك الأسطورة وسماها ب(الأسطورة الشخصية) أي أسطورة فردية تخص شخص واحد ولا يمكن تحقيقها الا بعد بذل مجهود كبير في العمل ، وهذه هي المهمة الرئيسة للشخصية في الرواية : (إنها تبدو قوى سيئة ، ولكنها تعلمك كيف تحقق أسطورتك الشخصية ، وهي تهيئ عملك وارادتك ، لأن هناك حقيقة كبرى في هذا العالم : أيا تكن ، ومهما تفعل ، عندما ترغب حقا بشيء ما ، فإن تلك الرغبة تولد من روح الكون . هذه هي مهمتك على الارض..... إن أنجاز الاسطورة الشخصية هو الواجب الوحيد المفروض على البشر . وليس سوى شيء واحد)٥٤ ثم يفسر الشيخ ملكي صدقي دلالة تلك الأسطورة للراعي بأنها تعني أن الإنسان أذا اراد ان يحقق طموحاته فعليه بالرغبة في تحقيقها وبدونها لا يمكن ذلك : (وعندما ترغب في شيء ما ، فان الكون بأسره يطاوعك على القيام بتحقيق رغبتك) ٥٥ ، ومثل هذه الافكار الفلسفية التي تخص الحياة تظهر في الرواية من خلال الحوار الذي يجري بين الشخصيات وهو أسلوب يتبعه الكاتب في اظهار تلك الافكار مع ربطها بالحدث ، ويتسأل البطل في حواره مع شخصية ملك سالم عن طريقة ظهوره في اللحظات الحاسمة ليعلن عن أفكاره وطروحاته ، قال الراعي له : (وهل تعلن ظهورك دائما في مثل هذه اللحظات؟

ليس بهذا الشكل دائما ، ولكنني لا اتخلّف عن الظهور اطلاقا. احيانا اظهر في شكل فكرة جميلة . واحيانا أخرى ، وفي لحظة حاسمة ، اتصرف على نحو تغدو الامور، معه، اكثر سهولة ، وهكذا ، ولكن معظم الناس لا يلاحظون شيئا.) ٥٦ ، هنا يبين الكاتب على لسان شخصيته طرق ظهور تلك الأفكار فهو يبثها بشكل فكرة واضحة مع الحدث ، أو بشكل ترميز للفكرة ، اي ذكر بعض الحكم والامثال التي

فيها مضامين فكرية وفلسفية في داخل الحوار وربطها مع الحدث أو الواقعة التي يذكرها ، أي يجب أن تكون ملائمة في سياق النص الروائي ، وأن لا تكون خارجة عنه ، مثلما نجد مقولة الشيخ ملكي صدقي للراعي بعد مطالبته بعشر الكنز الذي سيجده في مصر ، وهذه المقولة هي حكمة فلسفية ونصيحة يقدمها للبطل إذ قال : (إذا وعدت بما لم تملكه بعد ، فسوف تفقد الرغبة في الحصول عليه) ٥٧ ، ومثل هذه النصائح نجدها في الرواية وهي تدل على مرجعية الكاتب الفلسفية التي ذكرنا انه يبثها في بعض الحوارات التي تجري بين الشخصيات في اطار الحدث ، ونجد مثلا تلك النصيحة التي قدمها الشيخ للراعي بعد أن سرد له قصة لأحد الحكماء حول سر السعادة في الحياة ، وكيف يمكن للإنسان أن يحصل على ذلك السر ، وبعد أن سرد له قصة ذلك الفتى الذي قصد أحد الحكماء من أجل الحصول على سر السعادة وبعد أن اختبره قال له : (إن سر السعادة هو في أن تشاهد كل روائع الدنيا دون أن تنسى ، اطلاقا نقطتي الزيت في الملعقة)٥٨ ، وتعني أن على الإنسان بمقدوره أن يحقق الاشياء التي يرغب بها والتي يحبها ، وبالوقت نفسه يجب أن لا ينسى عمله وواجبه وحياته ، وهذه حكمة عظيمة يقدمها الكاتب للقراء فالرواية ليست مجرد جنس أدبي وإنما هي رسائل وأفكار يقدمها الكاتب ويعبر بها عن وجهة نظره في الحياة ، لتكون ذو فائدة وقيمة عند الناس وبذلك ستحقق الرواية هدفها السامي .

ويستمر الكاتب في عرضه لبعض الافكار الفلسفية ، وتأتي هذه من خلال التجارب التي يكتسبها البطل في أثناء رحلته إلى مصر بحثا عن الكنز في الاهرامات ، إذ يلخص لنا تلك الرحلة سريعا وهو جالس يفكر في تلك القافلة المتجهة الى مصر : (وفي هذا الوقت ، سارت القافلة ، وغدا من الصعب سماع ما

يقول . إلا أن الفتى كان يدرك تماما ما رمى إليه : هذه السلسلة الغامضة التي تجمع بين شيء واخر، والتي جعلت منه راعيا ، وجعلت الحلم ذاته يراوده غير مرة ، ودفعته إلى إن يتواجد في مدينة قريبة من افريقية ، وأن يلتقي ملكا في الساحة ، أن يسرق ماله ، فيضطر للتعرف إلى تاجر الأواني البلورية، و...قال الفتى في سره : (بقدر ما يقترب المرء من حلمه ، تغدو الاسطورة الشخصية الغاية الحقيقية للحياة) ٥٩ ، وهنا في رحلته في الصحراء يحاول أن يبين لنا الحكمة من هذه الرحلة وفائدتها ومثلما تعلم من التجارب السابقة ، فحتما ستكون هذه الرحلة الجديدة وهو يقطع الصحراء الكبيرة فإنه سيتعلم منها الكثير : (قال في نفسه : لقد تعلمت من أغنام ، وتعلمت من بلوريات ، واستطيع ، أيضا ، أن اتعلم من الصحراء و فهي تبدو لي أكثر قدما ، وابلغ حكمة.)٦٠ ، وهذه هي إشارات استباقية لما سيتعلمه البطل في رحلته ، وستظهر بعد ذلك تباعا مع احداث الرواية ، من ذلك مثلا ما ذكره صاحب القافلة وهو الجمّال الذي يقود قافلته بأتجاه الاهرامات مع مجموعة من المسافرين وكان من بينهم البطل وشخص يدعى بالانكليزي ، إذ ذكر لهم عبارة بدأت غريبة وغامضة بالنسبة لهم كونهم غرباء عن هذه المناطق العربية ولا يعرفون معتقداتهم جيدا ، فقد ذكر لهم أن من يعبر الصحراء عليه ان لا يرجع إلى الوراء وعليه بالتقدم وأن يختار افضل الطرق ولكن كل هذه هي بمشيئة الله ، وذكر لهم أن (كل شيء مكتوب)٦١ وهذه العبارة لم يفهم منها الراعي الاسباني ولا ذلك الانجليزي من مغزاها شيء ، وهي حكمة كونية ومبدأ إسلامي في تقدير الامور إلى الله تعالى وإنه وحده يعلم ماذا سيحصل في المستقبل .

وهناك مبدأ اخر مهم ذكره الكاتب في إشارة الى دلالة عنوان الرواية وهي العتبة النصية البارزة في الرواية التي يسعى اليها البطل وهو الوصول إلى علم الخيمياء واكتشاف روح العالم ، فهو (المبدأ الذي يحرك كل شيء . وهذا مايسمى في الخيمياء : روح العالم . عندما نرغب في شيء ، من أعماق قلوبنا ، نكون أكثر قربا من روح العالم ان لذلك دائما قوة ايجابية) ٦٢ وهذه الفلسفة هي المغزى الرواية وتعني ان كل شيء في الكون من معدن ونبات وحيوان يملك روحا وهذه الروح في تحول مستمر مادامت موجودة في الارض ، وعند ذلك يقوم الخيميائيون بتطهير هذه المعادن في مختبراتهم باستخدام النار وتحرير تلك المعادن من خصائصها الكيميائية (هذا هو الشيء الوحيد الذي يتيح للخيميائيين ان يفهموا كل ما على الارض و لانه يمثل اللغة التي تتواصل بفضلها الاشياء . ان هذا الاكتشاف هو الذي اطلقوا عليه اسم الانجاز العظيم المكون من جزء سائل وجزء صلب)٦٣ ، فالجزء السائل من هذا الاكتشاف هو اكسير الحياة الذي يشفي اي مرض، اما الجزء الصلب فهو حجر الفلاسفة الذي يؤدي إلى تطهير الذات وإلى تحويل اي معدن الى ذهب ، وهذه هي الغاية التي يسعى لها البطل من الوصول إلى سر ذلك الخيميائي الذي عمل على اكتشاف كيفية تحويل المعادن إلى ذهب ، وبهذا سوف يحقق أسطورته الشخصية وأن يحقق الانجاز العظيم .

الخاتمة :

١- وجدنا أن دلالة مصطلح المرجع تدل على مجموع الخلفيات الثقافية التي يكتسبها المبدع من خلال اطلاعه على الثقافات المتنوعة ، وقراءاته الكثيرة في العديد من المجالات التاريخية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ، التي نجدها مبثوثة في ثنايا عمله الادبي بوجه عام والروائي بوجه خاص ، فهي كل الافكار والرؤى والنظريات التي تمثل ايديولوجية الكاتب ورؤيته للعالم .

٢- ترتبط الثقافة بالانسان لذا تعد الثقافة هي مجموع الخبرات التي يكتسبها الفرد من بيئته الثقافية والاجتماعية .

٣- وجدنا مجموعة من المرجعيات الثقافية حاضرة بقوة في رواية الخيميائي ومنها الدينية من خلال ذكر بعض النصوص الدينية ، والاقتباسات من القرآن الكريم والتوارة وذكر بعض المظاهر الدينية ، وكذلك وجود المرجعيات الادبية والفلسفية وقد اعتمد عليها الكاتب في تشكيل بنيته الروائية ، لتشكل لنا نسقا بنائيا متكاملا ، فهي رواية فلسفية بأمتياز.

٤- كُتبت هذه الرواية بأسلوب رواية الاحداث وتتابعها مع استخدام الحوار بين الشخصيات التي افصح من خلالها الكاتب عن قضايا كثيرة تخص المجتمع ، والافراد والتأكيد على اهمية العمل في حياة الفرد فهي رواية تدخل ضمن التنمية البشرية ، واسلوب تعلم الحياة ، وكيفية مواجهة الصعاب .

٥- عالجت رواية الخيميائي ظاهرة التقاء الثقافات أي بين الثقافة الغربية المتمثلة بشخصية البطل (الراعي الاسباني) مع الثقافة الشرقية (العربية) والمتمثلة بالشخصيات التي التقى بها البطل إثناء رحلته إلى مصر ، وما حصل من مواقف وحوارات بين هذه الشخصيات التي بينت الفرق الواضح بين الثقافتين في كل الجوانب الاجتماعية والثقافية .

الهوامش والمصادر

١- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة : رجع ، دار المعارف القاهرة ، تحقيق : عبد الله علي الكبير واخرون .
٢- مفهوم المرجعية في علم الاصطلاح ، فريد أمعضشو ، موقع الكتروني الجمهورية ٢٠١١/١٠/١٢ https://www.yemeress.com/algomhoriah/2146928
٣- قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي ، انجليزي، فرنسي) رشيد بن مالك ، دار الحكمة ط ٢٠٠٠: ١٥٢-١٥٣ .
٤- دليل الناقد الادبي ، اضاءة لاكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا ،د- ميجان الرويلي ، ود-سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط٣ ، ٢٠٠٢ : ١٤٠-١٤١ .
٥- ينظر : مقدمة كتاب الاستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق ، ادوارد سعيد ، تر: د-محمد عناني ، دار بنجوين العالمية ١٩٩٥ ،و رؤية للنشر والتوزيع ٢٠٠٨.
٦- ينظر : دليل الناقد الادبي : ١٤٢-١٤٣.
٧- الثقافة العربية امام تحديات التغيير ،تركي الحمد ، دار الساقي ، بيروت- لبنان ط١-١٩٩٣م : ١٤-١٥ .
٨- ينظر : انظمة العلامات في اللغة والادب والثقافة ، مدخل الى السيميوطيقا ، اشراف سيزا قاسم ، ونصر حامد ابو زيد(مجموعة من الباحثين) حول الالية السيميوطيقية للثقافة ، يوري لوتمان، ويوريس اوسبنسكي ، تر: عبد المنعم تليمة: ٢٩٦.
٩- ينظر : النظرية والنقد الثقافي ، الكتابة العربية في عالم متغير واقعها سياقاتها وبناها الشعرية ، محسن جاسم الموسوي ، الموسوعة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ط١-٢٠٠٥م :٢٧-٢٨ .
١٠- الثقافة والتغير الاجتماعي ، ابراهيم صقر ابو عمشة ، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ط١-١٩٨٣م : ١٥ .
١١- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة ، ارثر ايزا برجر ، تر : وفاء ابراهيم ورمضان بسطاوي ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ط١ ، ٢٠٠٣م : ١٩٢ .
١٢- نظرية المنظمة ، د- مؤيد سعيد سليمان السالم ، ١٩٨٨ ، ب ت ط: ١٧٣.
١٣- ينظر : الثقافة العربية امام تحديات التغيير : ٥٥ .
١٤- الثقافة والتغيير الاجتماعي : ٢٩ .
١٥- الادب والمجتمع دراسة في علم اجتماع الادب ، حسين عبد الحميد احمد رشوان ، المكتب الجامعي الحديث ، ط- ٢٠٠٥م : ١٤٣-١٤٤ .
١٦- الثقافة والتغيير الاجتماعي : ٣٠ .
١٧- النظرية والنقد الثقافي :٢٧ .
١٨- شروط النهضة ، مشكلات الحضارة ، مالك بن نبي ، تر: عبد الصبور شاهين ، وعمر كامل مسقاوي ، باشراف ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق – سورية – ط- ١٤٠٧ه – ١٩٨٧م: ٨٩.
١٩- ينظر: الثقافة العربية امام تحديات التغيير : ١٧.

٢٠- ينظر : نفسه : ١٨ .
٢١- ينظر : محاضرات الاسكندرية ، ادونيس، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق – سوريا ط١، ايلول ٢٠٠٨م : ١١٧-١١٨.
٢٢- علم الاجتماع الادبي ، د. حسن الحاج حسن ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان –ط١، ١٤٠٣ه- ١٩٨٣م:٢٤٤ .
٢٣- ينظر : الثقافة العربية امام تحديات التغيير :١٨-١٩ .
٢٤- المرجعيات الثقافية بين المفهوم والتوظيف ، د. حكيمة سبيعي ود. هولي بوزياني خولة ، مجلة البحوث والدراسات ، المجلد ١٦ العدد ٢ صيف ٢٠١٩ : ٢٥٧.

* رواية الخيميائي ،باولو كويلو ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، تر: جواد صيداوي ، بيروت – لبنان ، ط١٨، ٢٠٠٩م.
** باولوكويلو : روائي وقاص من البرازيل ولد في ٢٤ اغسطس من عام ١٩٤٧م في ريو دي جانيرو ، ومارس الاخراج المسرحي والتمثيل وعمل كمؤلف غنائي وصحفي ، له العديد من المؤلفات الادبية واشهرها رواية الخيميائي وفتيات فالكيري –لقاء الملائكة ، والزانية وغيرها الكثير ،(ينظر: ويكيبيديا موقع الكتروني :https://ar.wikipedia.org/wiki/
٢٥- الرواية : ٢٩ .
٢٦- ينظر : نفسه : ٢٩- ٣٠ .
٢٧- ينظر : نفسه : ٣٧ .
٢٨- التناص نظريا وتطبيقيا ، د. احمد الزعبي ، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع – عمان – ٢٠٠٠م : ٣٧ .
٢٩- الرواية : ٧ ، وهو (نص اقتبسه الكاتب من الانجيل من الفصل العاشر ، الايات : ٣٨-٤٢) ينظر صفحة ١٣.
٣٠- ينظر : قصة مريم ومرثا ، موقع الكتروني : https:\\ar.wikipedia.org\wiki\
٣١- الرواية : ٢٤ .
٣٢- نفسه : ٥٢-٥٣ .
٣٣- نفسه : ٦١ .
٣٤- سورة الانسان : الايات : ٨-٩.
٣٥- ينظر : الرواية : ٦٩.
٣٦- نفسه .
٣٧- نفسه : ٧٠ .
٣٨- نفسه .
٣٩- ينظر : نفسه : ٨٦ .
٤٠- الرواية : ٩٣ .
٤١- المرجعيات الثقافية في منجز زيد الشهيد الروائي ، ابراهيم خليل عجيل ، اطروحة دكتوراه ، مجلس كلية الاداب – جامعة القادسية ٢٠٢١ م : ٧٦.

٤٢- ينظر: قصة يوسف عليه السلام في كتب اليهود المخفية دراسة مقارنة ، موقع الكتروني : اعجاز القران والسنة –السبت ديسمبر ٢٠١٩ : https://quran-m.com
٤٣- تاريخ يوسف بين التوراة والقران ، عبد الحليم عويس ، موقع الكتروني : https://ar.islamway.net/article/81496
٤٤- نفسه .
٤٥- الرواية : ١٢٣- ١٢٤ .
٤٦- ينظر : التناص نظريا وتطبيقيا : ٥٠ .
٤٧- ينظر : نركسوس (ميثولوجيا) ، موقع الكتروني : https://ar.wikipedia.org/wiki/
٤٨- الرواية : ١٣ – ١٤ .
٤٩- ينظر : نفسه : ٢٤ .
٥٠- ينظر : نفسه .
٥١- نفسه : ٣٢ – ٣٣.
٥٢- المرجعية الثقافية في الخطاب الروائي في قطر ، روايتا (غصن امواج) و (شو shu) لاحمد عبد الملك انموذجا ، جامعة قطر كلية الاداب والعلوم ، رسالة ماجستير ، عفيفة منادي الكعبي ٢٠٢٠م : ٦٣ .
٥٣- المرجعيات الثقافية بين المفهوم والتوظيف : ٢٦٥ .
٥٤- الرواية : ٣٧ .
٥٥- نفسه : ٣٨ .
٥٦- الرواية : ٣٩ .
٥٧- نفسه : ٤٠ .
٥٨- نفسه : ٤٧.
٥٩- الرواية : ٩٠ .
٦٠- نفسه : ٩١ .
٦١- نفسه : ٩٥ .
٦٢- نفسه .
٦٣- نفسه : ٩٧ .